نصوص أخرى من صناعة الكُتّاب

لأبي جعفر النحاس

الدكتور نوري حمودي القيسي

نشر الدكتور أحمد نصيف الجنابي مشكوراً نصوصاً باقية من صناعة الكتّاب لأبي جعفر النحاس في مجلة المورد العدد الرابع - المجلد الثاني - كانون الأول ١٩٧٣، وقد تناول في هذه الدراسة القيمة منهج البحث بالدرس والتحليل والشرح والتعقيب بما وقف عليه من النصوص الباقية من هذا الكتاب وهي خمسون نصاً في مختلف مناحي الكتابة وفي منهجها من حيث ابتداءاتها وعنواناتها واشتقاق قسم من أسماء مصطلحاتها. وقدم لكل ذلك بدراسة تناول فيها المؤلف، مولده، وعصره ومعاصريه، وكتبه الباقية والمفقودة، ثم عرض لتلاميذه وأخيراً وقف على كتاب صناعة الكُتّاب الذي تحدث فيه عن محتوياته وطابع الكتاب ثم مصادره وأثره فيمن ألف بعده وأخيراً ذكر النصوص... وهي دراسة مستفيضة وجليلة تستحق التقدير.

وفي المجلد الثالث ١٩٧٤ والعدد الثاني من مجلة المورد استدرك الدكتور أحمد خطاب أحد عشر نصاً من كتاب النحاس معتمداً على صبح الأعشى للقلقشندي وبدأت أشلاء الكتاب تتجمع لتكشف عن الصورة التي قدم فيها المؤلف هذا الكتاب الجليل الذي يدخل في إطار الاهتمام بلغة القرآن والنحو العربي والخط والكتابة وهي مستلزمات توجبها طبيعة البحث وتؤكدها أسباب الدراسة لتقويم اللغة وتحسين أدائها وضبط لغتها وفاءً لما تؤديه وإكراماً لجلال قدرها.. ويبدو أن كتاب صبح الأعشى يزخر بنصوص أخرى من هذا الكتاب صرّح ببعضها المؤلف ولم يصرّح ببعضها الآخر وهي مهمة يمكن أن يضطلع بها باحث للمّ شمل هذا الكتاب.. وقد وجدت من المناسب أن أدلو بدلوي في هذا الباب وأنا أعثر على نصوص أخرى في صبح الأعشى وفي كتاب مآثر الأنافة

في معالم الخلافة الذي فرغ من تأليفه سنة ٨١٩ للهجرة وقدمه إلى خليفة الوقت الإمام الأعظم المعتضد بالله أبي الفتح داود بن المتوكل وفيه عدد من نصـــوص هذا الكتاب ولا أستبعد أن تكون هناك نصوص أخرى منه في كتب القلقشندي أو مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري أو النويري في موسوعته الفريدة نهايـــة الأرب في فنون الأدب.

وإنني إذ أقدم هذه النصوص أدعو الله مخلصاً أن يعين البـــاحثين علـــى إيجاد ما ترك من هذه المؤلفات التي تحمل ثمار النضوج العقلي لمرحلة علميـــة ازدهرت فيها حركة اللغة واستقرت في إطارها عوامل النهوض...

النص الأول ٦/٢٩٠

ما كَرِهُوه في المكاتبة إلى كل أحد.. قال القلقشندي:

وما ذهب إليه من كراهة ذلك قد نقل في صناعة الكُتّاب مثله عن مالك بن أنس واحتج له بما رُوي عن الزبير رضي الله عنه أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم "جُعلت فداك – فقال له أما تركت أعرابيتك بعدُ" على أن بعضهم قد أجـــاز ذلك احتجاجاً بقوله صلى الله عليه وسلم لسعد بن مالك يوم أحد "ارمِ فداك أبـــي وأمي" وبما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: ألا أعلّمك كلمات ينفعك اللهُ بهنّ؟ قال نعم جعلني اللهُ فداك" ولـــم يُنكـــر عليه ونحو ذلك.

النص الثاني ٦/٣٣٧

ونقل النحاسُ عن بعضهم أنه استحب تقييده بالإضافة إلى شيء آخر مثـــلِ أن يكتب "أطال الله بقاءك في طاعته وكرامته" أو "أطال الله بقاءك فـــي أســـرِ عيش وأنعم بال" وما أشبه ذلك. هذان نصّان من صبح الأعشى.

أما النصوص المذكورة في كتاب مآثر الأنافة في معالم الخلافة فقد جـــاء في الجزء الأول "في معنى الخلافة، ومن ينطلق عليه اسم الخليفة، ومن تكـــون

عنه الخلافة، وكيفية النسبة إلى الخليفة".

وقيل: هو فعيل بمعنى فاعل كعليم بمعنى عالم، وقدير بمعنى قادر، ويكون المعنى فيه أنه يخلفُ من بعده، وعليه حمل الآية السابقة – وهي قوله تعالى: "إني جاعلٌ في الأرض خليفة" – من قال: إنه كان قبل آدم في الأرض الجنُّ أو الملائكة وإنه خلفهم فيها. واختاره أبو جعفر النحاس في كتابه "صناعة الكتّاب" وعليه اقتصر الماوردي (الصفحة العاشرة)... وعليه اقتصر الماوردي في الأحكام السلطانية. قال النحاس: وعليه خوطب أبو بكر رضي الله عنه بخليفة رسول الله وعلى ذلك ينطبق كلام البغوي في شرح السنة حيث سُمّي خليفة لأنه خلف الماضي قبله، ثم قال النحاس وإطلاق الخليفة على أمير المؤمنين يحتمل الوجهين جميعاً.

واختلف في الهاء في آخره، فقيل: أدخلت فيه للمبالغة، كما أدخلت في رجل داهية للكثير الدهاء، وراوية للكثير الرواية. وعلاّمة للكثير العلم. وهو قول الفرّاء واستحسنه النحاس ناقلاً له عن أكثر النحويين، ونُقل عن علي بن سليمان تخطئته احتجاجاً بأنه لو كان كذلك لكان التأنيث فيه حقيقياً، وليس كذلك، وقيل: الهاء فيه لتأنيث الصيغة، قال النحاس: وربما أسقطوا الهاء منه وأضافوه فقالوا: فلانٌ خليفُ فلان، يعنون خليفته (الصفحة الحادية عشرة).

وأجاز الكوفيون فيه (الخليفة) التأنيث على اللفظ فيقال أمرت الخليفة بكذا وأنشد الفراء:

أبوك خليفةٌ ولدتْه أخرى ... وأنت خليفةٌ ذاك الكمالُ

ومنع البصريون ذلك مُحتجّين بأنه لو جاز ذلك لجاز: قالت طلحة، في رجل اسمه طلحة، وهو ممتنع، قال النحاس: فإن ظهر اسم الخليفة تعيّن التذكير باتفاق، فتقول: قال الراضي الخليفة ونحو ذلك.

(النص في الصفحتين الحادية عشرة والثانية عشرة).

ويجمع الخليفة على خلفاء، على معنى التذكير دون اللفظ، كما في جمع كريم على كرماء، وظريف على ظرفاء. وعليه ورد قوله تعالى: "واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح" ويجمع أيضاً على خلائف حملاً على تأنيث اللفظ. كما تجمع صحيفة على صحائف، وعليه جاء قوله تعالى: "وهو الذي جعلكم خلائف الأرض"، قال النحاس: ويجوز أن يجمع على خلاف، ككريم وكرام، لأن الهاء زائدة.

وأما من ينطلق عليه اسم الخليفة، فقد ذهب جماعة من أئمة السلف منهم أحمد ابن حنبل رحمه الله إلى كراهية إطلاق اسم الخليفة على من بعد الحسن بن علي رضي الله عنهما فيما حكاه النحاس وغيره، محتجين بما رواه أبو داود والترمذي من حديث سفينة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: الخلافة في أمتي ثلاثون سنة ثم مُلْك بعد ذلك (الصفحتان الثانية عشرة والثالثة عشرة).

وقال:

المذهب الثاني أن الخلافة تكون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقال فيه: خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنه خلفه في أُمَته، وعليه ينطبق كلام الماوردي في الأحكام السلطانية والنحاس في صناعة الكتّاب وعلى ذلك خوطب أبو بكر رضي الله عنه بخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم. (الصفحة السادسة عشرة).

اللقب الرابع أمير المؤمنين، وأول من لُقّب به أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أثناء خلافته... واختلف في أصل تلقيبه بذلك، فروى أبو جعفر النحاس في كتابه "صناعة الكُتّاب" بسنده إلى أبي وبْرة أن أبا بكر رضي الله عنه كان يجلد في الشراب أربعين، فجئت عمر رضي الله عنه فقلت: يا أمير المؤمنين، إن خالداً بعثني إليك. قال: فيم، قلت: إن الناس قد تخافّوا العقوبة. وانهمكوا في الخمر. فما ترى في ذلك؟ فقال عمر لمن حوله: ما ترون؟

فقال عليٌ: نرى يا أمير المؤمنين ثمانين جلدة، فقبل ذلك عمر، فكان أبو وبْرة ثم عليٌ بن أبي طالب أول من لقبه بذلك. (الصفحة السابعة والعشرون).

وجاء في الكتب الصادرة عن ولاة العهد بالخلافة في الجزء الثالث من كتاب مآثر الأنافة في الصفحة الرابعة والسبعين بعد المئتين...

فقد قال أبو جعفر النحاس في كتابه "صناعة الكُتّاب" بعد أن ذكر أن صورة ما يكتب به عن الخليفة: من عبدالله أبي فلانٍ فلانٍ الإمام الفلانيّ إلى فلان، أتبع ذلك بأن قال: وليس أحدٌ من الرؤساء يكاتب عنه بالتصدير إلا الإمام وولي العهد، ولم يزد على ذلك.

والتصدير على ما فسّره ابن حاجب النعمان في كتابه "ذخيرة الكتاب" هو: من عبدالله أبي فلانٍ فلانٍ إلى آخره على ما تقدم، وقد قال النحاس في الكلام على العنوان: إنه يُحذف من الكتاب عن ولي العهد لفظ أمير المؤمنين، ويقال فيه: ولي العهد، ومقتضى ذلك أن المكاتبة عن ولي العهد كالمكاتبة عن الخليفة إلا أنه لا يقال فيه: وليّ العهد الإمام، ويقام لفظ وليّ العهد فيه مُقام أمير المؤمنين. فيكتب فيه: من عبدالله ابن فلانٍ فلانٍ الواثق بالله مثلاً - وليّ عهد المسلمين، سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وأسأله أن يُصلّي على محمد عبده ورسوله، أما بعد، فإنّ كذا، ويؤتى على المقصد إلى آخر الكتاب، على نحو ما تقدم في الكتابة عن الخليفة.

وفي الفصل الثاني من الباب السادس ذكر عن الكتب الصادرة إلى الخلفاء فللكاتب فيها ستة أساليب. يقول القلقشندي في الصفحة الثالثة والثمانين بعد المئتين:

قال في "صناعة الكُتّاب" ثم يقال: أما بعد، فإن كذا وكذا، حتى يأتي على المعاني التي يحتاج إليها، وتكون المكاتبة: وقد فعل عبدُ أمير المؤمنين كذا (فإذا زادت حاله لم يقل عبد أمير المؤمنين) فإذا بلغ إلى الدعاء ترك فضاءً وكتب: أتم الله على أمير المؤمنين نعمته، وهنّأه كرامته وألبسه عفوه وعافيته وأمنه

وسلامته والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

وقال القلقشندي في "الكتب إلى ولاة العهد بالخلافة"

فقال أبو جعفر النحاس في "صناعة الكُتّاب": ويكون التصدير في المكاتبة إلى ولي العهد على ما تقدم في المكاتبة إلى الخلفاء مع تغيير الأسماء، يعني أنه لا يقال فيه الإمام ولا أمير المؤمنين، بل ولي عهد المسلمين، وفي التصدير مع السلام: وبركاته، في أول الكتاب وآخره. وفي ولي العهد بحذف "وبركاته" من التصدير، فكانوا يكتبون لولي العهد: لعبدالله أبي فلان ولي عهد المسلمين، سلام على ولي عهد المسلمين ورحمة الله فإني أحمد إليه الله الذي لا إله إلا هو، وأسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم، أما بعد، أطال الله بقاء ولي عهد المسلمين. ويأتي على المقصد على ما تقدم في الكتب إلى الخليفة، ثم يختمه بقوله: والسلام على ولي عهد المسلمين ورحمة الله وبركاته.

الجزء الثالث الصفحة الحادية والثلاثون وثلاثمئة..